# بعض الذكرى . . . !

للأســـتاذ محمود محمد شاكر

كان ذلك منذ عشرين سنة ، وكنت فتى لا يملُّ الدُّؤوب والسعي ، وكانت أول مرة أدخل فيها بيت ذلك الشيخ[1] الضئيل البدن المعروق اللحم ، الذى ينظر إليك أبداً كالمتعجب . وكان الذى سعى بى إليه حبٌّ قد ملأ قلبي له ، وإجلال قد أخذ علىّ العهد أن أفى لهذا الشيخ ما حييت وفاء الذكرى ووفاء العلم ووفاء الاقتداء؛ وكنت يومئذ قد حضرت بعض دروسه فى مسجد البرقوق، وقرأت عليه شيئاً من كتاب أبي العباس المبرّد ، وكان يعدُّنى كبعض ولده لسابق معرفته بأبي رحمهما الله . وكنت يومئذ سقيم الجسم خفيف اللحم تحيل التجاليد ثائر الشَّعر ، فإذا لقيته فربما كان يقول لى : « كأنك آيبٌ من سفر بعيد أيها الفتى » . فكنت أفهم عنه ، فإذا انقلبت إلى الدار عدوت إلى المرآة لأرى ماذا حمل الشيخ على مقالته التى لم يزل يقولها لى ويبدى على يده أو فى يده ، فما أرى سوى وجه شاحب ضامر ، وعينين غائرتين كأنهما تنظران إلى شيء بعيد فى جوف وادٍ سحيق عميق . فأقول لنفسى : هـذا جُهْد التحصيل وكَدُّ النفس فى قراءة هذه الأسفار القديمة التى تباعدت معانيها وتقادمت عهودها .

طرقتُ بابه فى ذلك اليوم على غير ميعاد ، ففتح لى صغير من حَفَدته وقادنى إلى غرفة الشيخ ، فإذا هو جالس على حشيّة على بساط كالح من تقادم الأيام ، وعلى يمينه خزانة كتب مطويّة فى جوف الجدار، وأمامه صينيّة صفراء من نحاس فيها أداة القهوة ، وعلى يساره كتب مركومة ، وفى يمناه قلم يكتب . فلما سمع حسّى رفع إلىّ بصره وسكن ، وظلّ كذلك ساعة وأنا بين يديه يأخذنى ما قرُب وما بَعُد من هيبته ، وجعل ينظر إلىّ فأطال النظر ؛ ثم لم يلبث أن قال بصوت خافت ما كنت لأتبينه لولا أنى عرفت الذى يقول وكنت أحفظه ، وهى هذه الأبيات من شعر بعض الأعراب :

رأت نِضْوَ أسفارٍ ، أُميْمة ، شاحباً
على نضـــو أسفارٍ ، فجنَّ جنونها[1]

فقالت : « مِن أىّ الناس أنت ؟ ومن تكن؟
فإنك راعى صِرْمةٍ لا يَزينُها[2] ! »

فقلت لها : « ليس الشُّحوبُ على الفتى
بعارٍ ، ولا خـــيرُ الرجال سمينها .

« عليـك براعى ثَلَّة مُسْلَحِبَّة
يَرُوحُ عليـه مَخْضُها وحَقِينُها[3]

« سمينِ الضَّواحى ، لم تؤرِّقه ليـــلةً
— وأنعمَ — أبكارُ الهموم وعُونُها[4] »

وكان الشيخ حسنَ التقسيم للشعر حين يقرؤه ، فيقف حيث ينبغى الوقوف ، ويمضى حيث تتصل المعانى ، فإذا سمعت الشعرَ وهو يقرؤه فهمته على ما فيه من غريب أو غموض أو تقديم أو تأخير أو اعتراض ، فكأنه يمثله لك تمثيلا لا تحتاج بعده إلى شرح أو توقيف ، وكان فى صوت الشيخ معنى عجيب من الثقة والاقتدار ، وفى نبراته حين ينشد الشعْر معنى الفهم للذى يتلوه عليك ، فلا تكاد تخطىء المعانى التى ينطوى عليها ، لأنها عندئذ ممثلة لك فى صوته . والصوت الإنسانىّ هو وحده القادر على الإبانة عن المعانى الخفية المستكنَّة فى طوايا النفوس أو فى أحاديث النفوس .

---

(١) هو إمام العربية وحامل أمانتها شيخنا وأستاذنا سيد بن على المرصفى رحمه الله .

(١) نضو أسفار : مهزول قد أذابت لحمه الأسفار ولوحته اليد . يعنى بالأول نفسه ، وبالثانى بعيره

(٢) الصرمة القطيع من الابل والغنم .

(٣) الثلة . جماعة الغنم . مسلحبة : أى منبطحة ل مراعيها قد اطمأنت شبعاً ورياً . والمخض : اللبن الذى يستهلك فيه زبده فلا يكاد يخرج منه زبد ، وهذا أطيب ألبان الغنم وأمرؤها على البدن . والحقين : هو اللبن يجمع فى السقاء ويصب رائبه على حليبه ، فهو غذاء حسن ، وذلك كله كناية عن طيب مطعم هذا الراعى وحسن مشربه ، فهو فى خفض ونعمة

(٤) الضواحى : ما برز من الانسان كالمنكبين والكتفين ، يريد ممتلئ البدن من الراحة والدعة وسكون النفس . والأبكار : جمع بكر ، وهى المرأة لم تتزوج بعد . والعون : جمع عوان ، وهى المرأة كان لها قبل ذلك زوج . أما قوله : « وأنعم » فهى كلمة معترضة أراد بها أن قد طال على ذلك الراعى ما هو فيه من خفض ورغد وراحة ورفاهية حتى ربا وسمن وزاد ، فلم يشغله شيء يضنيه أو يأكل من بدنه .

وربَّ رجل أو امرأة تسمع كلامه أو كلامها وأنت لا تعرف عن أحدهما شيئاً ، فيخيَّل إليك وأنت تسمع أنك قد نفذت على نبرات هذا الصوت إلى أعمق الأعماق المدفونة فى هذه النفس الإنسانية التى تحادثك ، وهذا شىء لا يكون إلا فى ذوى النفوس الصادقة الصافية البريئة من حشو الحياة وسفسافها ، وهذه النفوس وحدها هى القادرة على أن تجعل الصوت بمجرَّده لغة مبينة عن أغمض المعانى التى تعجزُ لغات البشر عن حملها وأدائها .

وأنت محتاج حين تسمع « لغة الصوت » أن تكون يقظ النفس نمىَّ الإحساس ، نفَّاذاً إلى المعانى المتلفِّعة بالغموض ، حسن التيقظ للنبرات التى تدل على ضمير اللفظ ، سريع الخاطر فى إدراك هذا الموج المتلاحق من الحركات المختلفة . فإذا كان الذى تسمعه كلاماً يُتلى أو يُنشد كالشعر مثلا ، وكان الذى ينشده قد عاش ساعة فى معانيه حتى تلبَّس بها ونطق لسانه معبِّراً عن لسانها وعن لسان قائلها الأول — كان عليك أن تكون ليِّناً طيِّعاً سريع التبدُّل جرىء النفس فى غمرات المواطف ، حتى يتاح لك أن تعيش أنت نفسك فى هذه المعانى ساعة تتلى عليك . وعندئذ تنشاك غمرة لذيذة تدبُّ فى غضون نفسك ، فتحسُّ كأنك تُبعث بعثاً جديداً فى حياة جديدة حافلة بالصُّور التى قلما يدركها العقل إلا مُشوَّهة مُشيَّأة متخالفة التركيب ، فلا يزال يجهدُ فى تلفيق أجزائها حتى لا يبقى من أصولها الحيَّة الصريحة الصادقة شىء ألبتة . فإن استطعت يوماً أن تجد فى نفسك أنك مستطيع أن تكون على هذه الصفة ، فقد فهمت الشعر ونفذت إلى أغواره ، وإن عجزت عن بيان ما فيه .

وفى الناس ناسٌ ، وقليلٌ ما هم ، قد أجادوا « لغة الصوت » إجادة بارعة ، وإن كانوا فى أكثر الأحيان لا يدركون أنهم يحسنون منها شيئاً ، وذلك لطول ما انطوَوْا على أنفسهم حتى غمروها فى بحر النسيان . وربما سمعتَ أحدهم وهو يتكلم ، فما يكاد ينطق حرفاً أو حرفين حتى تحسَّ كأن كل معانى نفسه تنسربُ فى نفسك واضحة بيِّنة ، وأنك قد عرفت منه ما يكاد يخفيه عن الناس جميعاً ؛ لأنه متكبر أو قانط أوهيَّاب جزوع .

وهذا الضرب من الناس هم أشد خلق الله حرصاً على إخفاء آلامهم ، وأبعدهم رغبة فى الاستمتاع بالعذاب الذى يقاسونه ، لأنهم يظنون أنهم بذلك قد حازوا النصر على آلامهم ، وعلى الناس أيضاً ؛ إذ استطاعوا أن يواروا عنهم خبء ما فى نفوسهم الحزينة المعذبة ...

* * *

لما سمعتُ الشيخ رحمه الله ينشد تلك الأبيات ، تمثَّلت لعينى تلك المأساة الخالدة بين الرجل الصادق والمرأة التى أحبَّها ، وكانت تطمع أن يكون لها كما خيَّلت لها أوهامها ، وأن يأتيها بتحقيق أحلامها — أى أحلام حواء منذ كانت حواء ، على اختلاف العصور وتباين الحضارات . فهذا أعرابىٌّ يحب لصاحبته « أميمة » التى ذكرها فى شعره ، فدارت به الأيام فى فيافى الحياة ملتمساً ما يحقق به أمانى هذه المرأة المحبوبة ، ثم عاد إليها وقد أذابت البيد منه ما أذابت بظمئها وشمسها وجوعها ومخاوفها . فلما رأته شاحباً مهزولا رثَّ أسوأ حالا مما عهدته ، أنكرته وقد أثبتته معرفة ، فجنَّ جنونها لأنها محبةٌ قد أخطأت فى الرجل الذى تحبُّ كل ما كانت تؤمله ، وخانها ما كانت تتمثله فى أحلامها من صحة وشباب وأناقة وجمال . وما أسرع ما تتنكر المرأة إذا خاب ظنها وتبددت أحلامها ، وفاجأتها الحقيقة العارية بالشىء الذى يخالف ما كانت تتوهم !

كانت المفاجأة صارخة فى نفس أميمة ، فلم تلبث أن غلبتها تلك الطبيعة المتقلِّبة الغدَّارة التى طال عهد المرأة بها ، فأظهرت كأنها لا تعرفه ولم تلقَه ساعة من دهر . وجرى على لسانها ذلك الحديث الذى يرويه لنا المحبّ ، فقالت : مِنَ أىِّ الناس أنت ؟ ولم تقف عند هذا فأبدت الفزع منه لئلا يخونها ما فى حنايا ضلوعها فيظهر على لسانها فعادت تقول : ومن تكُنْ ؟ ولكن أنَّى للمرأة الضعيفة التى زلزلت المفاجأة بُنيانها أن تكتم حقيقة نفسها ؟ لقد كانت منذ هنيهة تسأله سؤال الجاهل من هو ومن يكون ، فإذا بها تنهار من شدة ما تعانى من اهتزاز كيانها ، فتقول له مقالة الناقد الساخر ، محاولة أن تبدى عن احتقارها وازدرائها لما ترى ، فزوَت عنه وجهها وهى تقول : لو كنت

راعيَ إبل لكنت خليقاً أن تنكر النفوسُ والأعينُ ما ترى من حقارتك وبذاذتك ، فكيف ترجو أيها المحب المغرور أن تكون حسناً في عين من تحبُّ ، وأن تكون زيناً لامرأة أحبتك ؟ وهكذا المرأةَ — إلا من عصم الله ...

فهم الشاعر المحبُّ مرمى كلامها فأنف لنفسه ، فانطلق يسخر منها بعد أن تكشَّف له ضمير المرأة الغادرة . فقال لها : ليس الشحوب على الفتى بعار ، ولا خيرَ الرجال سميها ، وإذا كان شحوبي قد ساءك وآذاك حتى أنكرت مني ما تعرفين ، فنعم ولك العُتبى عليَّ . عليك بمن يزينك . اطلبي لنفسك راعي غنم قد اطمأنت به وبها الحياة ، فعاش خافضاً وادعاً لا همَّ له إلا بطنه ، حتى امتلأ وتضلَّع وغدا سميناً بضاً جميلا كأحسن ما تأملين ، فأنتن أيتها النسوة إنما تحببن من الرجال الزينة وحدها ، كأنكنَّ إنما تتخذن الرجال حلياً لا أصحاباً ولا أزواجاً. وهكذا المرأة ، هي لضعفها تؤثر لحياتها كل ظاهر يدلُّ على القوة فهي تؤثر البدن القوي على البدن الضعيف ، وتؤثر اليسر على الخصاصة ، وتؤثر القناعة على الطموح ، وإن كان قلبها يؤثر بالحب ذلك الضعيف الفقير الطمَّاح الذي أضرَّ به الكدح ، ولكن قلب المرأة هو آخر ما تهتم له إذا جاءها ممن لا ترضاه لحياتها ؛ فالمرأة مفتونة بكل ما يدل على القوة الظاهرة ، ولا تكاد تبالي شيئاً بالقوة المستكنَّة كالعلم والعقل والجهاد والصبر ؛ لأنها تريد أن تحيا حياة مطمئنة محفوفة بما يحسدها عليه النساء سواها لا أن تحيا مجاهدة في عذاب حبيب مجاهد .

ومنذ سمعتُ الشيخ ينشد تلك الأبيات ، وقفتُ على كلمة في هذا الشعر لا أزال أعجب لها وهي : « أبكارُ الهموم وعُونُها » « أبكار الهموم » ! يا لها من كلمة عبقرية ! إن مزيَّة هؤلاء الأعراب البُدَاة على سائر من نطق بالعربية هي هذه الجرأة العجيبة التي تنقضُّ على اللغة فتنفضُها نفضاً وتختار من ألفاظها كلمة تضعها حيث تشاء ، فلا تراها تقلق في مكانها أو تضطرب ، وهم بذلك يختصرون المعاني كلها في كلمة واحدة يجتبأون فيها أجلاهم وخيالهم وأحاسيسهم وأسرار قلوبهم ، كما خبأ هذا الأعرابي كل ما كان في نفسه في « أبكار » ، ودلَّ بها على المعاني التي كانت تضطرم في قلبه حتى أضنته ومسحت وجهه بالشحوب ، وعرقت لحمه بالهزال ، وصيَّرته إنساناً مُنكراً في عين من يُحب .

فهذا الأعرابيُّ الجريء ، والمحب المزدَرَى ، والساخر المستخفُّ عندئذ بالناس وبالنساء وبالحياة ، قد أراد أن يُعلِّمَ « أميمته » الباغية أنها إذا كانت تؤثر عليه امرأً غضاً ناضراً ناعماً لم تؤرِّقه هموم النفس ولم يُضرَّ به الكدح في بوادي الأحلام والآلام والآمال ، فإنه غنيٌّ عنها ، وعن سائر نساء العالمين — وأن أمثالها لسنَ له بهمٍّ ، وأن له من حاجات نفسه وهمومها « أبكاراً » كأبكار النساء و « عوناً » كعونها ، فهو راضٍ بها وبما يلقى في سبيلها من أرقٍ وسُهادٍ . وأراد أن يُعلمها أنه لا يأسى على ما فاته من بِكْرٍ ولا عوانٍ ، فإن للنفس الشاعرة هموماً « أبكاراً » لم تمسسها يدٌ ولا فكرٌ ولا حُلُم ، تجد النفس المحبة فيها ما يجد المحبُّ في العذراء الحييَّة العصيَّة من فتنة وجمال ونضرة وشباب ، ولا يزال يداورها ويحاورها ويشق بالسعي في طِلابها شقاءً لذيذاً له في القلب نشوة أو سُعار. وهي « أبكار » لا تزال عذراء على وجه الدهر لا تتغيَّر منها الأيام شيئاً ، ولا تُنيل الطالبَ المحبَّ إلا متاع الحبِّ المجرد من شهوات الأبدان ، بل هي تتغذى بالأبدان فتضنيها وتنهكها لتبقى هي أبداً أبكاراً .

وللنفس أيضاً هموم « عُون » قد أصاب الناسُ منها ما أصابوا ، ولكن بقيت منها للنفوس الشاعرة بقية فاتنة بما فيها من دلال وكبرياء وقدرة على الامتناع عند الإمكان ، ونُبل في الخضوع والتسليم عند العجز ، فهي تُداور صاحبها وتحاوره حتى تشقيه شقاءً لذيذاً ثم تنيله ما يشاء حتى يرضى .

ولقد عجبتُ للشيخ يومئذ وهو يكرِّر : « لم تؤرِّقه ليلة ، — وأنعمَ — أبكارُ الهموم وعُونُها » فقد كانَ في صوته ما جعلني أتنبَّى أني لم أزل واقفاً أنصتُ لدبيب هذه الحياة في جوِّ الغرفة ، ثم خرجتُ من عنده ولا يزالُ صَدى صوته يردِّد في نفسي تلك الكلمات المصوِّرة المبدعة : « أبكارُ الهموم وعُونُها ».

محمود محمد شاكر